﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ كَٰفِرِينَ ١٠٠﴾ [آل عمران: 100]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ربط التّوبيخ على الضّلال، بالتّحذير من طاعة أهل الزّيغ والإضلال

بعد أن خاطب الله تعالى أهل الكتاب في الآيتين السَّابقتين، موبِّخًا إيَّاهم على ضلالهم بعد إقامة الحجَّة عليهم، وسعيهم في إضلال غيرهم؛ وجَّه الله تعالى في هذه الآية الخطاب إلى المؤمنين، محذِّرًا إيَّاهم من طاعة أهل الكتاب والافتتان بهم، وأنَّ مآل ذلك هو عودتهم في الكفر بعد إذ نجَّاهم الله منه[1]، "والكفر يوجب الهلاك في الدّنيا، بوقوع العداوة والبغضاء، وهيجان الفتنة والحرب وسفك الدّماء، وفي الآخرة النّار، وبئس القرار"[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَرِيقًا﴾: يعني طائفة مِنْكُمْ، وقيل: "يعني بالفريق الصّنف، الّذين كفروا، أي إن قلّدتموهم ردّوكم كافرين"[3]، والفرقة الجماعة المتفرّدة من النّاس، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ﴾ [التّوبة: 122]، والفريق الجماعة المتفرّدة عن آخرين، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [آل عمران: 78]، وفرّقت بين الشّيئين فصلت بينهما، سواء كان ذلك بفصل يدركه البصر، أو بفصل تدركه البصيرة، قال تعالى: ﴿فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ٢٥﴾ [المائدة: 25]، وقال: ﴿فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ٤﴾ [المرسلات: 04][4].

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/64.
(2) القِنَّوجي، فتحُ البيان: 2/299.
(3) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/448.
(4) الزّين، تفسير ألفاظ القرآن الكريم: (فرق).

2) ﴿يَرُدُّوكُم﴾: من الرّدّ، وهو صرف الشّيء بذاته، أو بحالة من أحواله، يقال رددته فارتدّ، قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾ [يوسف: 96]، ومن الرّدّ بالذّات، قوله: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ [الأنعام: 28]، وقوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ [الإسراء: 6]، ومن الرّدّة إلى حالة كان عليها، قوله: ﴿إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [آل عمران: 149]، وقوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ [البقرة: 109]، أي يرجعونكم إلى حال الكفر، بعد أن فارقتموه، وعلى ذلك قوله تعالى من هذه الآية: ﴿يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾[1].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

اتّباع أقاويل أهل الكتاب البَيِّنَةِ البُطْلانِ، تفضي إلى الرّدّة والزّيغ والهوان

يحذِّر الله تعالى المؤمنين في هذه الآية، مصدِّرًا ذلك بالنِّداء، أنْ: يا أيُّها المؤمنون؛ إن تطيعوا طائفة من أهل الكتاب - ممَّن يحسدونكم على ما أنتم فيه من الهدى - فيما يأمرونكم به، ويقولونه لكم؛ يؤُلْ بكم ذلك إلى الكفر بعد أن نجَّاكم الله منه، وهداكم للإيمان." فلا تأتمنوهم على دينكم، ولا تتصحوهم على أنفسكم، فإنّهم الأعداءُ الحسَدَة الضُّلّال، كيف تأتمنون قومًا كفروا بكتابهم، وقتلوا رُسلهم، وتحيَّروا في دينهم، وعجزوا عَنْ أنفسهم؟ أولئك والله هم أهل التُّهَمة والعداوة!"[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ خطابِ المؤمنين بغير واسطة في قولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾:

لم يصدَّر النِّداء بـ : (قل) في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ

(1) الزّين، تفسير ألفاظ القرآن الكريم: (ردّ).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 6/60.

يتحقَّقُ التَّمايُزُ بين المُخاطَبين في اختلافِ صيغِ خطابِهم

﴿إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا﴾ كما في الآيتين السَّابقتين في مخاطبة أهل الكتاب، وفي هذا إظهار لجلالة قدر المؤمنين عند الله تعالى وإشعار بأنَّهم الأحقَّاء بمخاطبة الله، وتكليمه لهم دون واسطة (قل)؛ وإن كان البلاغ في الحالين هو على لسان النَّبيِّ [1] ﷺ.

بلاغة استعمال ﴿إِن﴾ دون (إذا) في قولِه: ﴿إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا﴾:

المؤمنُ يُستبعدُ عنه طاعةُ أهل الكتابِ

جاء النَّهي عن طاعة فريق من الذين أوتوا الكتاب في قولِه تعالى: ﴿إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا﴾ بصيغة الشَّرط بأداة ﴿إِن﴾ دون (إذا)، وفي استعمال هذه الصِّيغة بهذه الأداةِ دلالةٌ على أنَّ هذه الطَّاعة لم تقع بعدُ، وأنَّها ممَّا يُستبعَد وقوع مثله من الَّذين آمنوا[2].

فائدةُ تخصيص التَّحذيرِ من طاعةِ فريقٍ من أهل الكتابِ:

التَّنبيه على خطورةِ طاعةِ الكثيرِ بالقليلِ

في قوله تعالى: ﴿إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ خصَّ الله تعالى التَّحذير من طاعة أهل الكتاب بفريق منهم، وفي اقتصار التَّحذيرِ من طاعةِ فريقٍ مبالغةٌ في التَّحذير من طاعة أهل الكتاب، وأمرٌ باجتنابِ مصاحبتهم بالكليَّة؛ كأنَّه قيل: لا تُطيعوا الذين أوتوا الكتاب، ولو فريقًا منهم[3]، أو يكون التَّحذيرُ من طاعةِ القليل للتَّنبيه على خطورةِ طاعة الكثيرِ.

الإشـــارةُ إلى خطورةِ الافتراق في الدِّين

وفي استعمال لفظ فريق إشارةٌ إلى التَّحذير من التفرُّق في الدِّين إلى شيع وأحزاب متناحرة، وهو الحال الَّذي ينتهي إليه من اتَّبَع فِرَق أهل الكتاب فيما يَدَّعُونَ إليه، كما قال تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: 103][4].

(1) البيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 2/31.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/281.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/64.
(4) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 5/13.

بلاغة حذف متعلّق الفعل: ﴿إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا﴾:

في قوله تعالى: ﴿إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ لم يُذكر متعلِّق الفعل ﴿تُطِيعُواْ﴾ فلم يخصَّص النَّهي عن طاعة هذا الفريق في أمر دون أمر من أمور الدِّين، بل أُطلق النَّهي عن طاعتهم، ولم يقيَّد بقيد، وفي هذا تعميم للنَّهي، ومبالغة في التَّحذير في هذه الطَّاعة في أيِّ أمر كان يتعلَّق بالدِّين والعقيدة[1].

النَّهيُ عن طاعةِ أهلِ الكتابِ يعُمُّ أمورَ الدِّين كلَّها

بلاغةُ الاستعارةِ في قولِه: ﴿يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ كَٰفِرِينَ﴾:

اُستُعيرَ لفظُ (الرَّدِّ) في قوله تعالى: ﴿يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ كَٰفِرِينَ﴾ الَّذي هو بمعنى: الصَّرف والإرجاع؛ للتَّعبير عن تغيُّر الحال من الإيمان إلى الكفر، وفي هذه الاستعارة تشبيه بليغ لحال الرَّاجع مِن الإيمان إلى الكفر بحال المصروف والمردود عن الطَّريق المستقيم[2].

تصويرُ قُبحِ حالِ المردودِ عن دينِه كافرًا

دلالة الظَّرف في قولِه تعالى: ﴿بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ﴾:

قوله تعالى: ﴿يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ كَٰفِرِينَ﴾ ﴿بَعۡدَ﴾ للظرفيَّة ولتوسيطِها بين المفعولَيْن في: ﴿بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ﴾ فائدةٌ معنويَّةٌ، وهي إظهارُ كمالِ شناعةِ الكُفْر، والإشارةُ إلى بُعد وقوعِه في قلوبِ المؤمنين الرَّاسخ إيمانُهم، ولو قيل: يردُّوكم كافرين؛ لكان الكلام تامًّا من جهة اللَّفظ؛ لاستحالة الرَّدِّ إلى الكفر دون إيمان سابق[3]، لكنَّ النَّظمَ القرآنيَّ جاءَ على أدقِّ بيانٍ، وفيه فائدةٌ أخرى وهي بيانُ حرصِ أهل الكتابِ على ردِّ المؤمنين بعد إيمانِهم كافرين.

بيانُ حِرْصِ أهلِ الكتابِ على غِوايةِ المؤمنين

وفي الظَّرفيَّة: ﴿بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ﴾ فائدة أخرى، وهي توضيح النِّعمة العظيمة الَّتي تفوت المخاطَبين؛ لو أطاعوا أهلَ الكتاب، حتى ردُّوهم إلى الكفر، وهي نعمة الإيمان باللّٰه تعالى وتصديق نبيِّه ﷺ[4].

الرِّدَّةُ تفويتٌ للنِّعمةِ واستحقاقٌ للنِّقمة

(1) الآلوسيُّ، روح المعاني: 2/233.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/28.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/64.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/28.

فائدةُ إسقاط الجارِّ في ﴿بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ﴾:

استغراقُ الزَّمن التَّالي للإيمان تقبيحٌ للكفر بعده

وفي قوله تعالى: ﴿بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ﴾ أُسقط الجارُّ، فلم يَقُلْ: من بعدِ إيمانكم، وفي هذا زيادة في تقبيح الحال المنهيِّ عنها من الارتداد إلى الكفر بعد الإيمان، وذلك باستغراق الزَّمن الَّذي بعد الإيمان كُلِّه، حتى كأنَّ العائد إلى الكفر بعد الإيمان غريقٌ في صفة الكفر، نسأل اللّٰه العافية[1].

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 5/13.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس، سورة آل عمران من الآية 39 إلى الآية 140
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة آل عمران من الآية 39 إلى الآية 140 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 5 ، 800 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-57-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 5 : سورة آل عمران من الآية 39 إلى الآية 140.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-57-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1170694 بتاريخ 2023/03/14م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»